قلب محـــروم . . !

للأستاذ غائب طعمة فرمان

[إلى صاحب القلب الكبير الذي كتب « من وراء الأبد » ... إلى صديق الأستاذ أنور المعداوي أهدي هذه القصة]

عزيزي ...

حين تصلك رسالتي أكون قد غادرت أرض الكنانة ميمماً شطر وطني — وبين جوانحي قلب مضطرب ، ونفس منعمة بشتى الأحاسيس — قلب جريح تجرع كؤوس الأسى مترعة ، ونفس عصفت بها رياح صارمة فخلفت أرض مصر زهوراً ذابلة هي ذكريات ليال وأيام؛ ستظل رؤى مرة في فكري لا يطردها النور ، وجذوة مستمرة في قلبي لا يخمدها تقاوم العهد ، وتطاول الأيام .

كنت تسألني كثيراً والابتسامة على شفتيك عن سبب سكناي في مصر الجديدة ، والشقة بعيدة بينها وبين جامعتي ، فأقابل ابتسامتك بابتسامة ، ويظل سؤالك من غير جواب .

وأراني الآن مدفوعاً بقوة صارمة صادرة من أعماق إلى أن أقص عليك طرفاً من تاريخ قلبي ، علك تشاركني آلامه ، وأشجان دنياي .

لست أدري السر في أن الإنسان يستطيع أن يكتم كل شيء إلا الحب والبغض ، حتى أصبح هذان الأمران محورين أساسيين للانسانية : الحب يبني ، والبغض يهدم .

فلا جناح عليّ — إذن — في أن أقول لك : إنني أحببت ... نعم أحببت حباً امتزج بدمي ، وطوق روحي ، وشغلني عن كل

إلى معالي وزير المعارف:

مرحى يا معالي وزير المعارف والعلم والأخلاق ! مرحى أيها الرجل النبيل !

لقد أصبت إذ قررت أن ترتدي الطالبات والمدرسات ملابس طويلة تغطي معظم الجسد عملاً بالدين واحتراماً لمحاريب العلم والأخلاق . إنني إحدى المؤيدات من الطالبات آلمني الضجيج الذي علا أخيراً في الصحف بين « المتمدنين » أنصار الإباحية وعجبت لمعارضاتهم التي لا تستند إلى حجة اللهم إلا « التقدم والرجعية » الكلمتين اللتين بليتا من كثرة الاستعمال بالحق والباطل .

يامعالي الوزير : ناشدتك الله ألا تلتفت إلى هذر أدعياء المدنية فالعلم بدون أخلاق مدرجة للشر وسبيل للفساد .

الطالبة

(ف . أ . ع)

دل قصر الخورنق :

في عدد سالف من الرسالة .. نشر الأستاذ كاظم المظفر .. تبحث عن « الخورنق » القصر المشهور بالحيرة .. وكانت طريقته في تأليف تلك السطور طريفة .. غاية بالطرافة .. إذ درس بها أقوالاً حول آثار العراق التاريخية .. كانت قد نشرت بنصها في مجلة الاعتدال النجفية .. كما أشار هو إليها ، وأقوالاً مثلها حول قصر الخورنق نشرت هي أيضاً في كتاب الحيرة للباحث القدير يوسف غنيمة — ولكنه لم يشر إلى هذا الكتاب إلا قليلاً — حيث شغله عنه ذكر بعض المصادر القديمة التي اعتمد عليها يوسف غنيمة من قبيل « اللمعة الإسلامية » و « الألفاظ الفارسية المعربة » و « حمزة الأصفهاني » و « البرهان القاطع » ...

والطريف هنا أن يوسف غنيمة كان يصوغ النصوص القديمة بتعبيره الحديث ويشير إلى أصولها في كتب القدماء — فجاء كاظم فنسب هذه النصوص بألفاظها الحديثة إلى القدماء ليوهم أنه اطلع عليها رأساً . ولم يأخذها من كتاب الحيرة المطبوع . وإنا لو أردنا أن نبرز السطور التي أخذها من مصادرها ومن يوسف غنيمة خاصة لما ظل لكاظم المظفر من هذا المقال الطويل شيئاً — إذ هو جميعه مأخوذ من هنا ومن هنا .. وإن حاول أن يخفي ذلك بذكره لكثير من المراجع التي لم ير أغلبها .

(بصره — عشار — عراق) قارئ

شيء ، فظلت أهيم فى زورق ، والأمل سد أقطار الحقيقة عنى ، ومنافذ النور عن بصيرتى ، ورحت أدنو إلى الشاطىء الثانى ، والضباب قاتم من حولى ، وفى أغوارى الظلمة واليأس المرير .

إننى لأذكر أول لقاء لى بها فى أحد تلك المقاهى المخضلة الأضواء وقد عرفنى بها ضابط مصرى عشت معه فى دار واحدة زمناً طويلاً — وقد كانت شعلة من إغراء ، وقد بدت لى صغيرة — صغيرة جداً حتى عبق فى وجهى عطر الطفولة الآسر — وكانت الابتسامة بين شفتيها كأنها تشجع القلب المحروم على أن يحب —

— فتاة فى العشرين من عمرها أجمل ما فيها عيناها السودوان المتألقتان كنجمتين فى سماء غسلتها دموع الملائكة .

وقد تحدثنا كثيراً ، وكان حديثها عذباً ، حلو النبرات ، وشعرت بأن عينيها تحدثانى فأنصت إلى الإيقاع الروحى الصادر من الأعماق — وبان لى أنها متذمرة كأنها تعيش فى سجن ، خائفة كأنها تتوقع شيئاً مؤلماً ، وكانت ثقافتها الفرنسية ذات أثر عظيم على نفسها ، بذرت فيها بذور الانطلاق ، ونسجت حول خيالها العوالم التى تخلقها قصص الحب — والعاطفة الملتهبة .

ولما رجعت إلى بيتى لم أكن وحيداً — فقد كان خيالها لا يبرح مخيلتى ، وما زلت أشم عطرها الآسر ، وألمح إبتسامتها الجميلة — وكانت معى أحلامى المجنحة — يا عجباً أبهذه السرعة تنبت — فأشعر بظلالها تسمر فكرى ؟

ورحت أنتظر صديقى واليوم هجر أجفانى ، والرؤى ملأت عالمى — ولما سمعت وقع أقدامه قفزت من فراشى ، وشققت أتطلع إلى شفتيه المنفرجتين من إبتسامة ماكرة .

قال :

— أتعرف ماذا تقول عنك — إنك فى نظرها طفل غرير .

بالمكر المرأة يا صديقى — هل أحست بنظراتى تضرعاً ، وباختلاج شفتى ظمأ لرحمة ؟!

ثم قال : ولكنها تريد مقابلتك مرة ثانية .

فقفزت فرحاً كأنى أبرهن على صحة نظرها — وقلت :

رحماك يا صاح حدثنى عنها — أقصص على أخبارها — أى نوع من النساء هى ؟ فصاح صاحبى .

— بالك من طفل — أتعلقت بها من أول لقاء ؟

لا — لا — لم أتعلق بها — ولكنى أحس بظمأ يحرق روحى إلى أن ألقى بها وأنظر إليها . وأتحدث معها — وأتملى سحر وجهها — وأتحدث إلى عينيها الساحرتين ... وأغمر قلبى فى وجهها الناظر ..!!

* * *

وفى اليوم الثانى ذهبت إليها .

وجلسنا فى أحد مقاهى مصر الجديدة ، والأنوار فى ألوانها المختلفة تخلق لنا فى آفاق مخيلتنا عوالم غريبة — والجو الساجى يرهف أعصابنا ، والنسيم المنبعث من وراء الأشجار الخضر ندىً كأنه يداعب أحلامنا ، ويشرق فى عالمنا بأطياف جميلة ... ومن خلف عالمنا السحرى تتألق النجوم من بعيد كأنها أشباح لدنيا مسحورة مختفية فى ضمير الأبد .

جلست إليها وهى أمامى ساحرة مشرقة القسمات ، وجفناها مسبلان بدلال على عينيها السوداوين ، وأنا أرتشف من كوؤس نشوتى ... ولاحت لى الأيام الماضية طلولا ينمق فيها غراب الوحدة ، وتصرخ فى جنباتها ريح اليأس المرير ... وحرقت ذكرياتى كلها فى نار وجدى ، وهمت فى الأجواء البعيدة التى تخلقها حواء .. أنا المحروم من ... العائش فى ضباب ، المسحور بتهاويل الأحلام .

وطال صمتنا ونطقت حواء أخيراً :

— ما بالك يا صاحبى ساهماً كأنك تفكر فى المستحيل ؟

ولمت عيناها ، ووقفت أمام سؤالها حائراً . . وأردت أن أصرخ فى وجهها :

— أقسم لك إنها هذا حق ... فأنا فى رحاب المستحيل .

ولكننى آثرت الصمت ، وانطلقت من شفتى ابتسامة هاربة كأنها جواب مبهم .

قالت : — إن الشباب دائماً يفكر فى المستحيل .. أتحالنى بعيدة عن عالمك الناضج ؟

— ولكن أية قوة قادتك إلى تلك الأبراج الشاهقة ؟!

— القوة التى تدفع الشباب إلى المستحيل ... ولكن لست أدرى لم يهيم الشباب بالمستحيل ؟

— لأنه كثير الآمال ... وكل أمل يخيب يزيد حياته ظلمة ، وينقلب فى سفر أيامه إلى ذكرى إخفاق ... مؤلم .

الآن بدأت أعرف لم يلف عمرى سحاب من الأحزان — إن أشياء كثيرة تحزننى هى جراح أحلامى — إن عمرى يذبل من غير غاية — فأنا الآن فى العشرين من عمرى ولم يتحقق حلم الجميل .

وأشفقت على حلمها الجميل الذى لم يتحقق وشعرت بيد من حديد تعصر قلبى وأردت أن أقول لها .

أيتها الهائمة فى الصحراء تفتشين عن حلمك الجميل — أيتها الفراشة التى أسلمها نار الحرمان ، قلبى المرحوم يناديك — أتسمعين نداءه ؟.. إنه يدعوك إلى أن تفكى عن الماضى ومآسيه ، وتدخلى فى الجنة التى خلقتها عيناك له — جنة أحلامه وأمانيه .

• • •

وافترقنا على ميعاد — وظللنا نذلف إلى عرائس أحلامنا مدة طويلة .

وجئت إليها مرة وفى قلبى همس — قلت

— اسمعى يا « نادية » فى ضميرى سر يعذبنى قد تكون اختلاجاتى تمت عليه — إننى أحبك !.. من أعماق نفسى ، وإنك قد دخلت دائرة حياتى ، ولا يمكننى أن أخرجك منها . ولا يمكننى أن أنساك ... إن آلامك آلامى ، وآمالك آمالى ، وقلبى يدعوك إلى أن نسير جنباً إلى جنب فى طريق الحياة .

فضغطت يدى وابتسمت عيناها — ثم شفتاها — وقالت :

كأنك تقرأ أفكارى — فأنا أخاف من طريق حياتى هذا القفر .

— وعندما رجعت إلى بيتى كنت إنساناً جديداً

أقسم لك يا عزيزى لقد تغيرت نظرتى إلى الحياة ... فقد تخيلتها إلى جنبى ملكاً حلالاً لى ... أنا وحدى ... أنا الذى قطعت حياتى فى صحراء الوحدة ... أنا الذى أذبل قلبى الحرمان والظمأ القاتل إلى الحنان — إلى الصدر العامر بحبى والإخلاص لى . إلى القلب الذى يضمد جراحى ... إلى الروح التى تنشلنى من الأوحال ... دنيای المظلمة القاتمة المضطربة التى لا تستقر على قرار .

وبنيت فى خيالى بيتى المنتظر ... بيتاً بسيطاً لاثنين . .

وتخيلتها إلى جنبى زهرة تحدق بالمطر ، وتملأ حياتى حبوراً ، وروحى قوة وحيوية ، وترد لى سعادتى الضائعة مع الأوهام .

كانت الدنيا فى عينى جميلة بهيجة ، حتى لقد أسفت على عمر قضيت شطراً منه فى عمى وجدالى من غير شعور بهجة الدنيا وجمالها ... وشعرت بأن الناس يشاركوننى أفراحى فقد رنت فى أذنى ضحكاتهم ، وابتساماتهم الحلوة ، وانطلاق أساريرهم ، وولائل السعادة فى محياهم ... ووددت أن تكون معى لتشاركنى بما أشعر به من سعادة .

... ووصلت إلى البيت فرأيت بطاقة من صديق الضابط يقول : إنه سافر إلى الأسكندرية لعمل هام يتطلب منه أن يغيب عشرة أيام ... أو أكثر .

... ولم أعر الخبر شيئاً من اهتمام لعلمى بما تقتضيه الحياة العسكرية من تنقل فجائى ... وفى أصيل اليوم ذاته سمعت أن « نادية » سافرت إلى « رأس البر » لقضاء أسبوع مع أقاربها . وقد تركت لى رسالة تخبرنى بذلك .

وظللت حائراً أمام هذه المصادفة العجيبة ... ورأيتنى لجاجة وحيداً إلا من وساوسى وخيالاتى ، وأشواق المضطرمة .

أنت تعرف — يا عزيزى — أن الوحدة لدى الإنسان العادى جحيم لا يطاق .. فكيف بوحدة الإنسان المتلىء بالظنون ، المتأرجح فى الأجواء ، تتلاقفه الأهواء ، وتستبد به الخيالات ، ويحس بشوق إلى أكتناه حجب المستقبل .

لقد تمذيت كثيراً وتحطمت أعصابى تحت أعباء الظنون القاسية ، وهزت نفسى هزات من القنوط ، وصرت صريع دياجير من أفكارى وتصوراتى .

وأخيراً رجع صاحبى ... ومعه زوجته

لست أعرف السر فى إخفاء خبر زواجه عنى أنا الصديق القريب له .

وبعد يومين رجعت نادية ... وفى مساء اليوم ذاته ألتقيت بها ... وكانت معى « ديلة » تختفى فى حياء إحدى زوايا جيوبى .

ولكن رأيتها صورة ثانية ... كأننى لم أرها قبل عشر سنوات ولمحت على وجهها اكتئاباً عميقاً ، وفى عينيها شروداً وغموضاً ، وفى اختلاج صوتها رنة من العبرات المحبوسة .

تكلمت فى مواضيع مختلفة ، ولكنها لم تتطرق إلى موضوع

زواجنا ... أنسيته أم تناسته ، أم ندمت على ما قلته ؟ .. لست أدري فقد بلغ الغيظ مني مبلغاً عظيماً وأحسست بأن الأرض من تحتي تتحول إلى رمال هشة ، وتحاول أن تبلعني .

قلت لها :

— أنسيت ما عاهدتني عليه ؟

أي عهد ؟

— أي عهد ؟! أنسيت أحلامنا وأمانينا ؟

سكتت وشردت بصرها أثر النجوم التي تطل على عالمنا ساخرة كأنها تضحك من مآسينا ... ورأيتها تمسك يدي وتقول :

فلان ... أنت عزيز علي ... إنني أشفق على حياتك أن تتحطم ، وعلى روحك أن يعصف بها إعصار ... لهذا فأنا لا أوافق على الخطبة !!

... عزيزي الأستاذ لقد حدثتك عن الأحلام التي كانت تعمر فكري — وعجبت من سرعة إزدهارها . لقد ذبلت اليوم بسرعة أيضاً — وها أنا أحس بقسوتها وضراوتها في فكري قالت :

— أنت الآن في نظري صديق عزيز أثق بقلبه ، وأطمئن إلى إنسانيته — لهذا سأقص عليك سراً كتمته عن جميع أصدقائي وأوثق الناس بي صلة — المأساة أمامك فتاة تجرعت صاب الخديعة ، ولقيت جزاء سناجتها وبراءتها ، وطيبة قلبها ... لقد كنت أتصور الدنيا خالية إلا من الحب والطيبة فأوغلت في دروبها منقادة بانطلاق حتى تعرفت على رجل ! صورته ليالي سهادي ملاكاً يمثل القدسية على وجه الأرض ، وانجرفت مع تيار تصوراتي إلى شاطئه ، فأحببته من صميم قلبي ، حباً جارفاً مجنوناً عاصفاً حتى رحت أهرع إلى صدره حين يستبد بي الضجر ، وتزرع الدنيا بذور الأحزان في قلبي . . لقد كنت أقرأ كثيراً مما يكتبه الفرنسيون المعاصرون بهستريا الحب ، فأنصاع إلى آرائهم وأدخل في جنائن تخيلاتهم ، وأهيم في الأودية التي تخلقها أفكارهم .. وأمتص رحيق الحب المحرق من شفتي محبوبي !!

كان صاحبي يتدفق بالزواج ، ويحتبي بالأماني العذاب ، ويطفو ظمئي بالسلسلات ... ولكني والحمد لله ما زلت محتفظة بجوهرتي الغالية على رغم إغرائه وتوسلاته ، وخوري أمام قوته الجارفة !!

ولكن الأيام والليالي تمر بسرعة غير متوانية ... وصاحبي صامت إلا من إحراق أزهار أحلامي ، حتى رأيت حبه لي يتحول إلى فتور ، وشوقه ينقلب إلى نفور ، وأراني وحيدة إلا من حب يائس لم تصبه الأيام الماضية بوهن ... تلك الأيام التي قضيتها في ظلال هجرانه لي ، وتنكبه عني ، ونفوره مني .

وذات يوم سمعت أنه سافر إلى الأسكندرية للزواج من فتاة من أسرة محترمة ... وتوهج الحب في قلبي ، وانقلب إلى شواظ من نار ... وقام في نفسي ميل شديد إلى الانتقام ممن سلبني قلبي ، وربطني معه ، ثم ولى هارباً إلى الوجهة التي ليست وجهتي .

فسافرت إلى الأسكندرية ، وعرفت البيت الذي سيظلل حبيبي ، فذهبت إليه ، ورأيت صاحبي مع عروسه يجالق ويفيض سعادة ، وتشرق الابتسامة في فمه في الجهة النيرة من الحياة كأنه نسي أن هناك قلباً يلوح بحبه ، ويتعذب نيشق في هوة سحيقة في الجهة المظلمة العابسة من الحياة ... وأحسست بالمرارة تخنقني ، وبكياني ينهار كأنه جدار خاو ، وعدت أدراجي من البيت الذي سرق مصباح حياتي وتركني أهيم في الدجى وحدي ... إنه نكث عهده ، ولكني ما زلت أحبه حباً عميقاً وأنا عارفة أنه سبب شقائي ، ولكني لن أتنكب عنه ... أما أنت فلا أريدك تتعذب بسببي ، ولا تتجرع كأس الأسى معي ... وسأظل مخلصة لحبي اليائس حتى يمنح الله حداً لحياتي التعسة .

وطفقت تبكي بدموع لم أتبين حقيقتها ... ثم قالت : — أعرفته ؟.. فأجبت : — لست غبياً إلى هذه الدرجة ... وامتلأ صدري بالحقد على تلك العلائق التي تربط الإنسانية .

قلت : أتذكرين عندما التقينا ثاني مرة في هذا المقهى ، وقلت : مالك ساهماً كأنك تفكر في المستحيل ؟.. لقد أردت أن أصرخ في وجهك : هذا حق ... فأنا الآن في رحاب المستحيل . ذلك لأنني سمعت هاجساً يهجس في أن حبك لي مستحيل ... لأن القوة التي صاغت حياتي كانت قاسية كتبت عليّ أن أسير وحيداً في طريق عامر بالأشواك .

ومددت يدي في جيبي وأمسكت بالدبلة وحطمتها بين أصابعي بقوة ... ثم رميت حطامها بعيداً ... ومعها أحلام قلب مجروح .

غائب طعمة فرمان